من مذكراتي في أمس القريب :

حول إنعـــام ...

للأستاذ فؤاد صروف

في ٢٦ أبريل ١٩٤٥ :

شرف الملك أمس حفلة افتتاح معمل المصل الجديد ، وأنعم الدكتور شوشه برتبة باشا . فنعم المنعِم ونعم المنعَم عليه ...

وقد كنت منذ سنوات في مجلس أديب كبير ، فدار الحديث الرتب والأوسمة . وكان أغلب الرأي بين المتحدثين أن تُلغى ب كما فعلت العراق وسوريا ولبنان ، ولكن الكبير قال : ألغيناها فكيف نستطيع أن نميز الرجل الذي يستحق بدير والتمييز لما يسديه من خدمة إلى الدولة ، أو لما يتفوق على الأقران من علم أو أدب أو فضل ؟ وكانت الكلمات خيرة في السؤال لا تزال تضطرب على شفتي السائل ، حين لمت المجلس سيدة ذكية حصيفة ، فوجه السؤال إليها ، فقالت ن أن تتردد لحظة واحدة : حسبه تقدير النخبة من المثقفين . كان قولها فصل الخطاب .

والدكتور شوشه ، ظفر أمس بعد إنعام الملك السامي ، سنيين : تقدير الملك المتمثل في رتبة عالية ، وتقدير النخبة من فين ، الذين عرفوه فأنزلوه من تقديرهم في المنزلة العالية .

وحين قرأت ذكر الدكتور على توفيق شوشه أمس ، تزاحمت اطر على ذهني ، فقد عرفته أول ما عرفته ، حين كان وكيلا ل الصحة فديراً لها . فكان يومئذ مكباً على البحث العلمي ميل ، مستغرقاً فيه دون أن ينصرف عن شئون الإدارة . يكن بحثه بحثاً في فراغ — على ما يقول علماء الطبيعة ، بل بحثاً في مشكلة معينة ، لها صلة بالإنسانية التي تتعذب ، لإنسانية المصرية على وجه خاص . فقد كان همه أن يكشف لا لمكافحة سم العقرب الذي يكثر المصابون به في مصر . فعل .

ثم عرفته محاضراً مجيداً بالإنجليزية والعربية ، وقد قيل لي إنه ن محاضر بالألمانية ، ولكنني لا أعرفها . وعرفته زميلا م الرأي في المجمع المصري للثقافة العلمية ، وكنت سكرتير المجمع حين تولى رئاسته ، فتجلى لي في كل هذا رجلا آخر : فهو رجل ليس واسع العلم دقيق البحث وحسب ، بل يستطيع أيضاً أن يبسط العلم وينقله من لغة إلى لغة نقلا بارعاً ، تعلو عبارته العلمية الدقيقة سمةٌ من طرافة الأدب . وقد أتيح لي أن أنشر في المقتطف ، وفي كتب المجمع السنوية ، نصوص أربع من محاضراته في الغازات الحربية ، وسيرة كوخ وأعماله ، والمركة اليومية في الجسم البشري ، وتقدم الطب خلال خمسين سنة . وكان لابد من أن أديم النظر فيها عند تصحيح التجارب ، وكنت أتوسل بتلك التجارب لكي أذهب إليه في العامل لأظفر بشيئين : أن ألخصها معه فأضمن دقتها ، وأن أستمتع بتعليقه عليها وعلى ما فيها من وجوه التعبير . فتعلمت في خلال هذه الساعات التي كنت أسترقها من وقته ، بين إدارة العامل وبحثه العلمي الأصيل ، أن أقدر أسلوبه البارع في تقريب العلم ، وحسه اللغوي الدقيق في التعبير عن المعاني العلمية ومصطلحاتها ، قديمها وجديدها على السواء .

ثم عين وكيلا لوزارة الصحة ، وكأن السنين الطويلة التي قضاها في تحصيل العلم وممارسة بحوثه الأصيلة ، وإعداد المحاضرات لتقريب معانيه وإلقائها ، وما علمه بالتجربة من حاجة مصر إلى الإصلاح الصحي من وجوهه الكثيرة ، وما فطر عليه من حب الخير والعمل — قد احتشدت جميعاً ، لتكون الأساس لمشروعات الصحة المتعددة التي وضعها أو محصها مع الوزراء الذين تولوا الوزارة ، والمتخصصين من رجال الوزارة ورجال كلية الطب ، فصح فيه يومئذ ذلك القول المأثور: « هذا المنصب لهذا الرجل ».

هذه المعاني الثلاثة : البحث العلمي الأصيل الذي يحول بعض المجهول معلوماً — والمحاضرة العلمية المثقفة التي تجعل بعيد معانيَ العلم دانياً منقاداً ، وتطبيق قواعد العلم وأغراض العلم في أعمال الحكومة والإدارة لتحقيق خير الشعب — هي التي تألقت في ذهني حين علمت بأن جلالة الملك تفضل فخصه بإنعام سام ، كان إنعاماً على العلم والعمل النافع جميعاً .

وهذه المعاني الثلاثة تقرر حقيقة ، وترسم دستوراً لجميع العاملين . أما الحقيقة ، فمسطورة في سجل خدمته ، وأما الدستور فركن من الخطة العظيمة التي لا بد لمصر من أن تختطها — منذ اليوم بل منذ الساعة ، لكي تعد نفسها لمواجهة مشكلات الغد وحلها ، حتى تستطيع أن تقيم في هذا الوادي عالماً أفضل من

عالم أمس الغابر ، عالماً يقوم على الوفر دون العوز ، وعلى الصحة دون السقم ، وعلى العلم دون الجهل ، وعلى أخلاق الرجال .

وفى وضع هذه الخطة وإنفاذها ، لابد لنا من أن نربى العلماء الذين يتولون العلم ببحوثهم الأصيلة . ولست فى حاجة إلى إقامة الدليل على أن العلم قوة ، وينبغى أن نطلبه ولو فى الصين . فليس ثمة ناحية من نواحى حياة الفرد أو المجتمع لم يتغلغل فيها العلم فرفع من شأنها وأصلح من أمرها : الزراعة والصناعة والغذاء والصحة والمواصلات والمخاطبات . وكثير مما أنجبه العلماء فى سائر بلاد الناس ، يصلح لنا فيصح أن نتعمق فيه ونتدرب عليه ثم نتخذه فى ما يصلح له من شئوننا ؟ ولكننا نجد فى بيئتنا مشكلات خاصة ، لا يصلح لبحثها أو حلها إلا علماؤنا . وهم ماضون فى ذلك بحمد الله ، ولكن عددهم يجب أن يزداد أضعافا . وتأييدهم من الحكومة والشعب يجب أن يستفيض فى الميزانية ، وعلى ألسنة الناس وفى مجالسهم وصحفهم ، وصلتهم بالصناعة المصرية ينبغى أن تتوثق . وحبذا لو طالع القراء الكتب السنوية التى أصدرها المجمع المصرى للثقافة العلمية — هذا المجمع الذى كان الدكتور شوشه أحد مؤسسيه ، ثم أحد رؤسائه — إذن لوجدوا فى مئات من الصفحات ، فى خمسة عشر مجلداً نفيسا أو تزيد ، عشرات من المسائل القومية فى الزراعة والصناعة وتوليد الطاقة ، وحفظ التربة ، وكفاح المرض ، وتجويد الغذاء وتحسين الصحة العامة لا يصلح لبحثها وحلها إلا الأكفاء من المصريين ، الذين جرى حب البلاد والشعب فى عروقهم ، وتدربوا على البحث العلمى الأصيل . وما خبرية الدكتور شوشه وسم العقرب ، ومرشحات الماء فى المنازل الريفية والقرى الصغيرة والمتوسطة التى أخرجها منذ سنوات ، سوى مثلين وحسب .

أما تبسيط العلم وتقريب معانيه البعيدة ، وبث روحه العالية فى جماعات الناس التى لم تظفر لسبب من الأسباب بالقسط الذى تتوق إليه منه ، فقد أصبح لزاما فى هذا العصر الذى اتسع فيه نطاق المعرفة اتساعا لا عهد لنا بمثله فى عصر سابق من عصور التاريخ . فكل علم من العلوم القديمة قد نما واتسع نطاقا وتشعب فروعا ، فتولدت منه علوم جديدة كل منها أدق من سابقه معنى وأشد عناية بالتفاصيل ، فهو لذلك أشق على الحصر والإحاطة به . فقد كشف النظار عن كواكب ونظم منظومة من النجوم والسدم يتعذر على عقل واحد أن يلم بها جميعا ، وأصبح رجال الجولوجيا يذكرون ألوف الملايين من السنين ، على حين كان رجال العصر السابقة لا يذكرون إلا الألوف ، وأماط علم الطبيعة اللثام عن كون منتظم فى الذرة ، والبيولوجيا عن كائن حى فى الخلية وأبان علم وظائف الأعضاء طائفة يتعذر حصرها من أمر الأعضاء ، وأثبت علم النفس وجود عوالم وعوالم من الفكر والشعور فى كل حلم ، وجاء رجال علم الإنسان فوصفوا لنا صورا عجيبة عن قدم الإنسان على سطح الأرض ، وجاراهم رجال الآثار فأخرجوا من جوف الأرض مدناً وحضارات ، وتبعت ذلك المخترعات العجيبة التى يسرت أساليب الحياة ، ولكنها خلقت طائفة كبيرة من المشكلات الاقتصادية والاجتماعية تكاد تستعصى على الحل .

وفى هذا كله روعة تأخذ بمجامع النفس ، ولكن يكمن خطر لا بد من تبيينه والتحذير منه . فالتخصص يزداد على الزمن تعمقا فى شئون لا يدركها المثقف من أوساط الناس ، والمثقف الوسط يتسع نطاق ما يعرفه ، ويضيق نطاق ما يفهمه . وإذا انقسمت المعرفة على هذا النحو عجزت عن توليد الحكمة ، وهى لكل علم ، ولكل فرع من علم ألفاظ خاصة لا يفهمها التخصصون . وصار زعماء معظم الأبحاث عاجزين عن وصف ما يكشفون بلغة الناس .

ومن هنا اشتدت الحاجة إلى المعلم الذى يستطيع أن يُفهم الشعب ما يفعله المتخصص أو يكشفه ، فمهمته أن يتعلم لغة المتخصص ، كما تعلم المتخصص لغة الطبيعة ، ثم يحطم الحاجز اللغوى القائم بين المتخصص والأمة ، أو الحاجز اللغوى بين ولغة أو كليهما ، كما هى الحال عندنا الآن .

ومن آيات التوفيق فى كفاح هذا الخطر ، أن قام فى الغرب علماء وهبوا هذه القدرة التى نطلبها فى هذا الطراز من المثقف . والدكتور شوشه مثال بيننا لما أسداه أولئك العلماء إلى قومهم . فعلمه الواسع الدقيق يمده بالقدرة على الغوص المعانى البعيدة فى العلوم التى توفر عليها ، وخياله الخصب يعهد تصوير تلك المعانى صورا شائقة قريبة ، وحسه اللغوى الأدبى يمكن له إفراغها فى عبارات ناصعة عربية وبيان عال . والقوى الثلاث تضبط إحداها الأخرى : فالعلم يضبط الخيال فلا يشط ويمسك القلم فلا يغرق ، وإذا العبارة القصيرة ، أو العبارة الطويلة ، آية فى الوضوح والرواء والإحكام .

(البقية فى صفحة ٣٤٠)